الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الصداقة الروحية — الطلبة والجاموس ! — ابن الخير ! — معركة فى غير ميدان — حمار الحكيم ! — الرفيق قبل الطريق — مشينا وشفنا فقد اكتوينا بنار الحوادث فى حربين .

الصداقة الروحية

كانت قسوة الشواغل قضت بأن أحرَم أنس الحديث مع قراء « الرسالة » نحو شهرين ، وهى شواغل متصلة بخدمة اللغة العربية فى آفاق لا يسايرُنا فيها القراء لأنها متصلة بحياة التعليم ، وهى حياة لا يُنشر من أخبارها شىء إلا بعد أن يستوثق الباحث من أنه وصل فيها إلى آراء تستحق التسجيل بطريقة علنية ، وذلك لا يتيسر إلا بالجهاد العنيف فى الأعوام الطوال ، كالذى تيسّر فى الأبحاث التعليمية التى نشرتها فى الجزء الثالث من كتاب « ليلى المريضة فى العراق » وفى كتاب « البدائع » وكتاب « وحى بغداد »

وأنا بهذا الكلام أعتذر عما قيـل من أنى جَنَحتُ إلى الراحة فى الأسابيع الماضية ، فما كان من ذلك شىء ، وإنما حرصتُ على تأدية واجباتى الرسمية تأدية ترفع عن صدرى كرب الغيظ من أن يكون فى الزملاء مَن هو أحرص منى على تأدية الواجب ، فقد قلت مرة على صفحات « الرسالة » إن فى وزارة المعارف رجالاً يجرى فى خواطرهم أنهم ليسوا موظفين ، وإنما يدبّرون ملكهم الخاصّ ، وأنا من هؤلاء مكروبٌ مَغيظ ، ومع ذلك أتمنى أن يُكثر الله من أمثالهم فى الدولة المصرية . والفُرص أمامى لأسبقهم فى ميادين الكفاح الصادق حين أشاء

انتهى العام الدراسى بخير ، ولم تبق إلا أعمال خفيفة لا تستنفد الوقت ، فما عسى أن أصنع ؟

هل أذهب لقضاء الصيف فى باريس ؟

وكيف وقد انقطع بينى وبينها الطريق ؟

هل أمضى لقضاء الصيف فى الإسكندرية ؟

وكيف وقد انفضّت الملاعب حول الشواطئ ، وضاعت الفرصة على مواعظ الشيخ أبى العيون ؟ وما أسخفَ الحياةَ التى تستقيم استقامة مُطلقة فلا يثور عليها واعظ ، ولا يتطاول فى تثريبها عاذل ، ولا يَشقَى فى تَعقُّبها رقيب !

هل أذهب لقضاء الصيف فى سنتريس ؟

وكيف وهى تضيق عنى ، وأخشى أن أكدر صفو أهلها بأحاديثى عن معضلات الحياة الدولية ؟ وهل تتسع الحياة فى الريف لرجل يريد أن يشهد أعنف قَلقلة من قلقلات التاريخ ؟

لم يَبق إلا المقام فى القاهرة فأقضى صدر النهار فى الاستفادة من خِبرة من ألقاهم فى وزارة المعارف ، ثم أقضى بقايا الوقت فى تحبير الكلمات التى ألقى بها القراء من يوم إلى يوم ، أو من أسبوع إلى أسبوع ، فى الجرائد والمجلات

والحقُّ أننا من الفِكْر فى كرب ، فالحوادث التى نعانيها فى هذه الأيام لا تكفى لتغذية مطامعنا الفكرية ، فنحن نفزع إلى الأدب لنملأ به فراغ الأرواح والقلوب والأذواق ، ومن هنا تفهمون كيف اتفق فى أحيان كثيرة أن تقام الحفلات لذكريات الأدباء والمفكرين فى ميادين القتال

لا سبيل إلى تخفيف مكاره هذه الأيام « البيض » إلا بالأنس إلى الصداقة الروحية ، الصداقة التى يعقدها الأدب بين الكاتب والقارئ ، وهى أثمن ذخائر الوجود

وفى ظلال هذا الأمل الجميل أقضى هَجِير هذا الصيف ، فأحادث قرائى ، وقد رفع بينى وبينهم التكليف ، فقد ضقت ذرعاً بما فى الدنيا من قيود ، واشتقت إلى تنسم هواء الحرية بين صرير القلم وزئير الروح

الطلبة والجاموس !

كنت نشرت مقالاً فى المقطم موضوعه « التصوف فى الوطنية » سردت فيه بعض الأسباب التى أحب من أجلها وطنى ، ومن تلك الأسباب أن أرض مصر تصلح للزراعة أربع مرات فى العام الواحد ، فكتب إلىّ حضرة « م . ع . ف » خطاباً يُنكر فيه أن تكون مصر كما وَصَفتُ ، ويؤكد أن أهل مصر لا يعرفون غير سوء الحال ، وأن فى مصر آلافاً من الأعيان حُكِم عليهم بالسجن لعجزهم عن سداد المال (؟ !)

والظاهر من خطاب هذا السيد أنه يتعقب أعمال الحكومة ، فقد ذكر أشياء تشهد بأنه يُساير خطوات الحكومة فى جميع الميادين ، ويتناولها بالثناء والملام على حسب الظروف !

وأقول بصراحة إن الأمة التى تنتظر من الحكومة كل شىء وتطالبها بكل شىء هى أمة فى دَوْر الطفولة ، والطفل يعتقد أن أباه على كل شىء قدير ! وأقول أيضاً إنه ليس من المعقول أن يكون فى مصر آلاف من الأعيان حكم عليهم بالسجن للعجز عن سداد الضرائب . وإذا صح ذلك فهو شاهد على أن الأعيان فى مصر لا يصلحون لتدبير ما يملكون من الأموال والأطيان

وهذا السيد له منزلة فى الصعيد ، ولم أصرح باسمه إلا خوفاً عليه من النقد الذى سأسوقه إليه بلا ترفق . فهو يرى من الإسراف أن يكون فى الميزانية مال مرصود لجسر شبرا وجسر سمنود ، وهو ينكر أن يكون للأوبرا وحمام السباحة فى أسيوط نصيب من أموال الميزانية ، وهو فى النهاية يَعجب من أن تنفق الدولة ثلاثين ألفاً من الجنيهات لتحسين نسل الجاموس مع أن فى طلبة الجامعة من عجز عن دفع المصروفات !

تحسين نسل الجاموس ؟

يا سلام ! يا سلام !

كيف يليق بحكومة رشيدة أن تفكر فى تحسين نسل الجاموس مع أنها تعرف أن بعض طلبة الجامعة عجزوا عن دفع المصروفات الدراسية ؟ !

ذلك منطق هذا السيد الذى يَشغل مكاناً مرموقاً فى الصعيد !

وعُذر هذا السيد أنه قرأ فى مجلة « آخر ساعة » كلمة جَرَت مجرى الدعابة ، فظنّ أن من العيب أن يهتم وزير الزراعة بتحسين نسل الجاموس ، وهو جاموس !

هو حقيقة جاموس يرعى البَرسيم ويأكل الفول ويشطح وينطح بلا فهم ولا تمييز ، ولكن هذا الجاموس الأعجم هو من صميم الثروة المصرية ، والاهتمام به لا يقلّ خطراً عن الاهتمام بالقطن والقمح والعنب والتين والبطيخ

فكيف يجوز لرجل أن يعدّ الاهتمام بتحسين نسل الجاموس عيباً من عيوب الحكومة ، إلا أن يكون هذا الرجل من الصالحين للسجن بسبب العجز عن تسديد الضرائب ؟

المُقتَل الخطير لأهل مصر هو الغرام بالنكتة ، ومن هنا جاز أن ينتهزوا الفرصة فيعيبوا على حكومتهم أن تهتم بتحسين نسل الجاموس

ويقول هذا السيد إن اشتغالى بالأدب صرفنى عن مواجهة الواقع . وأقول إنه لو اشتغل بالأدب كما اشتغلتُ لقرأ فى كتاب البيان والتبيين كلاماً معناه أن أحد العرب قال : لو كان لى ألف بعير فيها بعيرٌ واحد أجرب لقمتُ عليه قيام من لا يملك غيره !

ومعنى ذلك أن الاهتمام بالبهائم والأنعام لا ينقصُ من أقدار الرجال ، وإنما هو دليل على العناية بأصول الاقتصاد

أيها الغافلون من أهل هذه البلاد

راجعوا وزارة الصناعة والتجارة تخبركم عما نستهلك فى كل عام من الواردات المصنوعة من الألبان ، وعندئذ تعرفون أنه ليس من العيب أن تهتم بتحسين نسل الجاموس

اللهم ارزقنى جاموسة أو جاموستين لأنسى مرارة الإفطار على الشاى الأسود فى كل صباح

وأنت أيها الجاموس

هل تحفظ هذا الجميل فتذكر أنى دافعت عنك فى مجلة الرسالة الغراء ؟

لقد ضاع الجميل عند الحيوان الناطق ، فهل تحفظه أنت يا جاموس ؟ !

وكيف نطالبك بحفظ الجميل ، وما حفظنا لك الجميل ؟

كانت فِطرة العربىّ فى الصحراء ألطف وأصدق ، فقد نظم فى ناقته أعظم القصائد ، أما المصرىّ فقد ظلم جاموسته أقبح الظلم ولم يذكرها بغير السخرية والاستهزاء

فهل تكون للبداوة تلك المحاسن وتكون للحضارة هذه العيوب ؟

كان الفراعنة أعرفَ الناس بأصول المنافع فعدُّوا البقرة من المعبودات لأنهم رأوها من صُوَر الحنان ولأنهم عرفوا ما يصدُر عنها من الخيرات

والجاموسة أغزرُ نفعاً من البقرة ، ومع ذلك صح لأدبائنا أن يَسخروا من الوزير الذى اهتم بصحتها الغالية !

ولكن لا بأس فنحن فى زمن تَطِيب فيه السخرية من المنافع ، وهو زمنٌ مقلوب الأوضاع ، ولولا ذلك لرُسمت الجاموسة بجانب الفلاح على ورق « البنكنوت »

لبن الحمير !

ومن جناية النكتة على أهل مصر نُفرتهم من شرب ابن الحمير ، مع أنه بشهادة الطب أطيب أنواع الألبان ، وهو فى أمان من الجراثيم التى يتعرض لها ابن البقر والجاموس

ومن المؤكد أن هذه الكلمة ستفوز بطوائف من النكت حين تظهر فى مجلة الرسالة ، كما ظفرت الكلمة التى نشرتُها عن فضائل الحمير فى كتاب « ذكريات باريس »

والمهمُّ عندى أن يعرف المصريون خيرات بلادهم ، وأن يذكروا أن الحمير كانت ولا تزال من أطايب الثروة المصرية ، وإليها يرجع الفضل فى خدمة الفلاّح الذى يذرفون من أجله دموع التماسيح !

وقد ورد التنويه بالحمار المصرى فى كتاب الأغانى ، وهو أصبر من الحمار الحَسّاوى ، المنسوب إلى الحَسَا من بلاد البحرين ، وهذه فائدة قد يذكرها بعض من يحفظون الجيل

ولا مؤاخذة يا أرباب الذوق المصقول من أعداء الحيوان !

معركة فى غير ميدان

دهش الناس للمعركة الحاميــة التى ثارت فوق صفحات « الأهرام » بين الصديقين أحمد الصاوى وتوفيق الحكيم حول الفكر والحرب ، وقد وقعت فى تلك المعركة ألفاظ غلاظ لا يسوّغها صديق إلى صديق

وخلاصة رأى الصاوى أن زمن الشِّعر قد ولّى وفات ولم تبق إلا دولة الطيارات والدبابات

ويقول الحكيم إن الأمم القوية من الوجهة الحربية هى الأمم القوية من الوجهة الفكرية

والرأيان يلتقيان بكل رفق ، فما الموجب للتراشق بالألفاظ الغلاظ ؟

وقد فصل الأستاذ سـعد اللبان فى هذه القضية حين قال : أولئك قوم يتجادلون فى البديهيات !

ولعل الأستاذ توفيق الحكيم يعترف اليوم أنى هديته إلى أصل الفكرة حين حاورته فى جريدة الأهرام ، فقد كان يتوهم أن الفكر منفصل عن الحرب كل الانفصال

لعله يذكر أنى قلت وأنا أحاوره :

« إن الحرب الدموية تَرجّ الأذهان والعقول ، ولكنها فى الأصل من صنيع الأذهان والعقول . والعالم غير مُقْبل على الخراب ــ كما نقول حين نقرأ أخبار الحرب ــ وإنما هو مُقْبلٌ على يقظة روحية وعقلية واقتصادية سيعرف مَداها من يشهد تطوُّر الوجود فى المستقبل القريب ، وهو مستقبل نشهد تباشيره منذ اليوم برغم ما نعانى من الضجر والاكتئاب كلما طالعنا أخبار التدمير والتخريب فى الصُّبح والظُّهر والمساء

الإنسانية اليوم فى حومة هائلة من يقظة الفكر والرأى ، فليس القتال نزاعاً بين جنود وجنود ، وإنما هو صراع بين آراء وآراء ، كما كان فى العصور الخوالى نزاعاً بين دِين ودِين ، وما تغيرت المعانى وإن تغيرت الأشكال »

ذلك ما قلته فى الحادى والعشرين من شهر مايو ، وهو أصدق من آراء الصاوى والحكيم، على ودهما القديم ألف تحية وألف سلام!

كنت أظنهما صديقين ، ثم عرفت — مع الأسف — أنهما من إخوان الزمان :

نعيبُ زماننا والعيبُ فينا وما لزماننا عيبٌ سـوانا

« حمار الحكيم »

وفى هجوم الصاوى على الحكيم وردت عبارات مقتبسة من كتاب « حمار الحكيم » ، وهى عبارات يقول فيها المؤلف : إن الوقت عنده ليس من ذهب ، وإنما هو من تراب . ويقول : إنه يخاف من العفاريت

وأقول : إن الصاوى لم يدرك ما فى هــذه الكلمات من السخرية ، السخرية من المجتمع الذى نرى صوره فى بعض البيئات ، وهى سخرية رأينا صداها فى مقال نشره سعادة الأستاذ مصطفى عبد الرازق بك فى مجلة الصاوى

وقد آن لبنى آدم من أهل هذه البلاد أن يفهموا أن المؤلف لا يُسأل عما يَرد فى كلامه من العبارات التى يديرها حول نفسه ليتمكن من السخرية بالمجتمع ، فقد آذتنى جريدة لا أسميها فى بلد لا أسميه ، لأنى قلت فى كتاب « ليلى المريضة فى العراق » :

« أنا رجل لئيم ، ويجب أن أستفيد من فساد المجتمع »

فقد قالت تلك الجريدة: كيف يجوز لحكومة رشيدة أن تعتمد على هذا الرجل فى تثقيف الشبان ، وهو يعترف بأنه لئيم يستفيد من فساد المجتمع ؟

وإذا جاز لصديقنا الصاوى أن يؤول كلام صديقه الحكيم بلا فهم لغرضه الصحيح ، فقد جاز لى أن أصفح عن ذنوب الجاهلين ممن فاتهم سر التأليف يوم قرأوا كتاب « ليلى المريضة فى العراق »

الرقيب قبل الطريق

تلك حكمة عربية أوحتها ظروف الحياة البدوية ، فقد كانت المسالك وعرة ، ولم يكن للمسافر بدٌّ من رفيق يعينه على متاعب الطريق .

وطريقنا فى هذا العهد هو الكتابة والتأليف ، والرفيق هو رئيس التحرير ، أو القارئ ، أو الرقيب فى الأيام التى تُفرَض فيها الرقابة على الكتابة والتأليف

ولى فى هذه النواحى تجارب ، وأستطيع أن أقول إن أعظم من عرفت من رؤساء التحرير هم عبد القادر حمزة وخليل ثابت وأميل زيدان ومحمود أبو الفتح وأحمد حسن الزيات ، فهؤلاء نشروا لى مقالات لم يكن يجوز أن تُنشر لولا إيمانهم بقيمة الحرية الفكرية

ولم أكن أعرف الرقيب الذى كنت أصطدم به يوم كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار فى سنة ١٩٢١ فقد كان يفصل بينى وبينه فقيد الوطنية عبد اللطيف الصوفانى بك ، طيَّب الله ثراه

أما الرقيب فى هذه الايام فهو الأستاذ محمود عزمى ، وأستطيع أن أقول إنى كنت أملك نشر ما أشاء بدون تهيب ولا تخوف ، لأنى كنت أملك الاحتكام إليه حين أريد

وفى الأستاذ محمود عزمى عيب فظيع هو الخضوع للحرية الفكرية ، وهو عيب جميل ، أكثر الله من أمثاله بين الرقباء !

يبقى الرقيب الأعظم وهو القارئ

وأستطيع أن أقول إن رقابة القارئ لم تكن رفيقة فى أكثر الأحايين ، فقد كان يفهم عنى غير ما أريد ، وكان يرانى بعين الحقد والمقت فى بعض الأحيان

ومع ذلك بقيت صداقتى للقارئ كما كانت ، فلم أتحول ولم أتبدل ، ولم أستبح الرياء لأظفر منه بالإعجاب ، لأنى أعتقد أن الكاتب الذى يتلمس المواقع من هوى القارئ ليس بكاتب ، وإنما هو مأجور ، والكاتب المأجور لا يصلح لشىء ولو استمد بيانه من وحى السماء

الكاتب الحق هو الذى لا يخاف غضبك ولا يرجو رضاك

الكاتب الحق هو الطبيب الذى لا ينزعج من صُراخ المريض

الكاتب الحق هو الذى يفزع إلى القلم والقرطاس كما يفزع الجائع إلى الطعام والظامئ إلى الشراب

الكاتب الحق هو النهر الذى يحمله الطغيان على الهدير ، أو الأسد الذى يحمله الغضب على الزئير ...

الكاتب الحق لا يعرف قراءه أبداً ، وإنما يعرف أنه ينفِّس عن صدره بالتعبير ، كما ينفِّس الوجود عن صدره بسمير الحروب

فمن كان يظن من القراء أننا اشتقنا إليه فهو مخطئ ، فما بنا شوق إلى أحد ، إلا أن تَصلُح الدنيا فترجع الأنوار إلى بُولفيش فى باريس ، وشارع فؤاد فى القاهرة ، وشارع الرشيد فى بغداد

أفى الحق أن الدنيا ردَّتنى إلى هذا الحد من القسوة والعُنف ؟

أفى الحق أنى أمسيت لا أهتم بعواطف قرائى ؟

هو ذلك ، فمنذ أسابيع وأنا جاثمٌ بالدار التى بنيتها على حدود الصحراء

وعن الرمال التى يُلهبها القيظ، يتحرك القلم الذى يُلهبه الغيظ

فإن عشت وعشتم إلى عودة السلام فسيكون لى معكم حديث غير هذا الحديث . ألم تسمعوا أنى كنت شاعر الصباحة والجمال ؟ ألم تلومونى على عُنف الهيام بالعيون والقدود ؟

ذوقوا بأس الحرب يا عُشاق الحرب ، ذوقوا بأس البلاء يا عشاق البلاء ، فلن أنسى أنكم سَخِرتم منى حين كنت أتغنى بالجمال فى أيام السلام !

متى تعود أيامى وأيامكم ؟ متى تعود ؟ متى تعود ؟

عشنا وشفنا

شهدت حربين فى حياتى : الحرب الماضية والحرب الحاضرة

فمن كان يعجب من أنى قضيت حياتى فى حرب فليعرف أنى أخذت الوقود لأدبى من سمير هاتين الحربين ، ولا يملك الفرار من حوادث زمانه غير المزوَّد بالغفلة والجمود ، وما كنت من الغافلين ولا الجامدين

فى الحرب الماضية كنت طالباً بالجامعة المصرية ، وكانت أملاكى بالقاهرة لا تزيد عن مكتبة صغيرة سارعتُ بنقلها إلى سنتريس ورجعتُ لأشاهد تلك القلقلة التاريخية

وفى هذه الحرب ، الحرب التى يقال إنها قد تؤذى مصر بعض الإيذاء ، صار لى فى مصر الجديدة منافع هى المكتبة التى